حمير القمم

تلقيت قبل عدّة أيام مكالمة هاتفيّة غريبة من صديق أمريكي. كان هذا الصّديق قد عاش في البلاد فترة زمنيّة، تعلّم فيها اللغة العربية وتعرّف على عادات وتقاليد العرب. بعد التحيّة والسّلام فاجأني عندما بدأ بمعاتبتي حول كتاباتي الأسبوعيّة. قال صديقي شاكيًا: "ماذا لديك ضدّ الحمير؟! أنت تعرف أنني أعمل في جمعيّة الرفق بالحيوان، وقد لاحظت من خلال كتاباتك أنك كثيرًا ما تنهيها بطرفة أبطالها من الحمير. كل ذلك بصورة ساخرة ونمطيّة عن الحمير. على ما يبدو أنك لا تدرك الكثير من الحقائق عن هذا الحيوان. دعني أذكّرك ببعض هذه الحقائق علَّك تغير رأيك وتوجّهك عن هذا الحيوان الرائع. اعترف أنني كنت مصدومًا وشعرت بالارتباك والاستغراب في آن واحد. ووجدت نفسي قائلًا: "تفضّل كلّي آذان صاغيّة".

لم ينتظر صديقي أن أنهي جملتي حتى شرع بمونولوج طويل عن الحمير: "هل تعلم أنّ الناس في الولايات المتحدّة يربّون الحمير كحيوانات أليفة للتسلية؟! وأنّ الممثّل المشهور "آرنولد شوارزنيجر" لديه حمار للترفيه اسمه "لولو". وهل تعلم أنّ الحمار هو رمز الحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة؟!

وأنّ الحمار يستطيع أن يعيش 40 عامًا إذا لقي العناية المناسبة واحيانًا حتى جيل الخمسين؟! هل تعلم أيضًا انّ بإمكان الحمار أن يتذكر انسانًا أو حمارًا آخر بعد 25 سنة من لقائهما؟ هل تعلم أنّ العناد والحماقة والبلادة التي ينسبها الناس للحمير لا أساس لها من الصحّة. هل تعلم أنّ الحمار حيوان اجتماعي ويعيش بمجموعات، وفي حالة بقائه وحيدًا فإنه يُصاب بالاكتئاب؟ وهل تعلم يا صديقي أنّ بإمكان الحمار سماع نداء حمار آخر عن بُعد 60 كيلومترًا! كما أنه يستطيع بمساعدة أذنيه الطويلتين، أن يحافظ على حرارة جسمه في الصحراء الحارة؟! هل تعلم أنّ المسيح المنتظر سيأتي راكبًا على حمار عند قيام السّاعة؟! في هذه المرحلة قاطعت صديقي "كلّ هذا بطلع من الحمار؟! وليش الحمير عندنا مش هيك"؟!

هنا حاولت أن أسترجع معلوماتي المحدودة عن الحمير، شاحذًا ذهني طويلًا، محاولًا مجاراة صديقي بهذه المعلومات حيث أحسست أنني أمثّل تراثنا الشعبيّ بكلّ ما يتعلّق بثقافة الحمير. أحسست أنني أمام معركة طاحنة بين الثقافات المتمثلة بحميرنا وحميرهم.

"هل تعلم أيّها الصّديق الغربي أنّ من تقاليد العرب أنّ الحمار لا يدفع مهرًا للعروس، ولا يكون مركوب عريس أو عروس، ولا يُستوفى ديّة قتيل، ولا يكون

هدية أمير، ولا يُمشى فيه بمأتم، ولا يُربط قرب جامع، لأن الحمار مشهور بقلّة لياقته في التعبير عن ذاته.. ولأن أنكر الأصوات أصوات الحمير.

ومن تقاليد العرب كذلك، أن يُطاف بالزّانية والزاني في شوارع المدينة على ظهر الحمار، بالمقلوب، بحيث يكون وجه المطوّفة أو المطوّف إلى ناحية ذيل الحمار، وذلك إمعانًا في تحقيرهما. أما المقتول برفسة حمار، فلا يندبه النادبون، لأنه يكون قتيل عار.

ومن مزايا قلّة مروءة الحمار أنه إذا عبر فوق ماء جارٍ وقف الحمار وشرب على مهله، ثم ما لبث أن بال بالماء، وإذا بال حمار في مكان ما، بال كل حمار آخر يمر فيه. كما أن كلمة "حمار" معناها في مفهوم العامّة: إنسان قليل الاعتبار، وإذا أردنا أن نصف الغشيم أو البليد، قلنا إنه حمار.

هنا انفجر صديقي صارخًا: "ألا تشعر أنكم تظلمون الحمار كثيرًا في ثقافتكم وتراثكم؟!"

دعني أخبرك شيئًا يا عزيزي: نحن شعب شرقي، نؤمن بالقصص والحكايات، بالأساطير والخرافات، نؤمن بالقضاء والقدر والمكتوب على الجبين تراه العين، كما نؤمن بالفأل والنصيب. دعني أخبرك بقصة حدثت منذ زمن طويل: يُقال أنّ شابًا من إحدى القرى خطب فتاة من قرية أُخرى قريبة. فأوفد العريس

وفدًا في طلبها. وحضر هؤلاء إلى القرية على ظهور الحمير ومعهم فرس واحدة مركوب العروس. وحدث أن مختار قرية العروس أصرّ على مواكبة العروس، وقضت اللياقة أن تُعرض الفرس عليه، فامتطاها. ونُقلت العروس على ظهر حمار.

لكن ما أن شاهد أهل العريس العروسَ على ظهر الحمار، حتى غضبوا ورفضوا تسلّم العروس عن ظهر الحمار، قالوا هذا عار، وأكبر عار، على قريتنا وشؤم على الجميع. وهكذا أُعيدَت العروس على ظهر الحمار إلى قريتها لكي يُعاد إحضارها على ظهر فرس، لأن الخيل معقود في نواصيها الخير.

إلّا أنّ ذوي العروس غضبوا هم بدورهم، لرجوع ابنتهم مكسوفة الخاطر إليهم واحتفظوا بها حفظًا لكرامتهم.

ما انتهيت من حديثي حتى صُعِقَ صديقي وقال: "يعني العُرس فَرَط من قصة الحمار، والله أنتم شعب غريب الأطوار. أنتم تستعملون الحمار علاقةً لتبرير آرائكم المتخلّفة، يا للعجب "

شعرت بحرج شديد عند سماع جملة صديقي الأمريكي واستدركت وقلت: اننا قرويون وقد اكتسب آباؤنا وأجدادنا من عِشْرةِ الحيوانات بعض الحكم، وبنينا عليها قصص تراثنا وأمثالنا الشعبية، فالحمار مثلًا: يستطيع أن يحك جميع

أعضاء جسمه، ما عدا ظهره، لذلك كلّما التقى حماران عاريان تولّى الواحد منهما، بحكم غريزته حك ظهر الآخر بأسنانه، لذلك نقول في بعض كلامنا عن تبادل المنفعة: "حكّلّي وبحكّلّك".

بادرني صديقي قائلًا: "نحن نستعمل هذا المثل للمصالح والمنفعة المشتركة أيضًا، هل تعتقد أنّ للحمار، كرمز للحزب الديمقراطي الحاكم، علاقة بالسّياسة؟".

دعني أُجيبك يا صديقي على سؤالك هذا بطرفة بطلها "صديقك" الحمار:

اشترى رجل حمارًا، ومن فرحته به أخذه إلى سطح بيته. وصار الرجل يدلل الحمار ويُريه مساكن قبيلته من فوق السطح، حتى يتعرف على المنطقة ولا يتيه حين يرجع للبيت وحده.

وعند مغيب الشّمس أراد الرّجل أن يُنزل الحمار لإدخاله إلى الإسطبل. فحزن الحمار ولم يقبل النزول، فقد أعجبه السطح وقرّر البقاء عليه. توسّله صاحبه مرات عديدة وحاول سحبه بالقوّة أكثر من مرّة، فلم يقبل الحمار النزول. لكن الحمار دق رجله بين قرميد السطح، وصار يرفس وينهق في وجه صاحبه وبدأ البيت بالاهتزاز وعجز سقف البيت الخشبي المتآكل، على تحمّل حركات ورفسات الحمار، فنزل الرّجل بسرعة ليُخلي زوجته وأولاده خارج المنزل. وخلال دقائق انهار سقف البيت ومات الحمار. فوقف صاحبنا عند رأس حماره الميّت وقال: "الغلطة ليست غلطتك، أنا الغلطان الّي طلعتك على السطح".

العبرة يا صديقي أنه من الصعب إنزال الحمير الذين تمّ إيصالهم لمكان غير مكانهم الحقيقي. لا يُلام إلّا من أوصلهم لذلك المكان فعند تعيين أناس غير مناسبين في مواقع القرار، فلا عجب من انهيار المنظومة وتصدّع البيت.

ربنا يُسترنا من حمير القمم

أ.أيمن جبارة